أكاديمية الدين الخالص
ممباسا - كينيا
DEEN KHAALIS ACADEMY
MOMBASA - KENYA

التفسير

للصف الثالث الثانوي

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وكالة الجامعة
إدارة المناهج

المِصْبَاحُ المُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

إعداد: جماعة من العلماء

بإشراف

الشَّيخ صَفِيِّ الرَّحْمٰنِ المباركفُوري

١٤٣٢/١٤٣١ هـ

يُوزع مجانا ولا يُباع

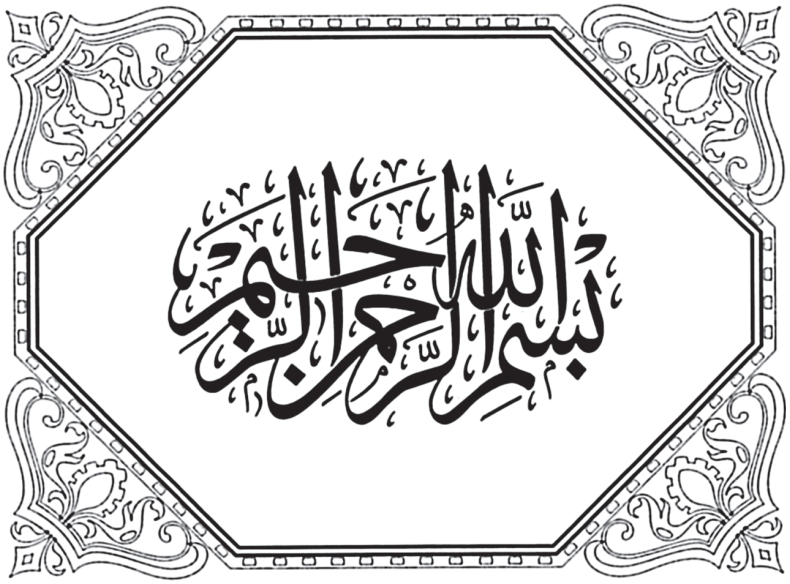
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أما بعد:

فلقد شرفت الجامعة الإسلامية بخدمة العلم وطلابه، ولاسيما مصدري التشريع، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تعلمًا وتعليمًا، ومن أهم تلك العلوم التي تخدم هذين المصدرين علم التفسير الذي يعنى بفهم معاني القرآن العظيم وأحكامه.

وحرصًا من الجامعة على ربط طلاب العلم بمصادر التفسير وكتب السلف الصالح، رأت أن يكون طلابها مرتبطين بأهم كتب التفسير وأكثرها قبولاً عند علماء الأمة وهو كتاب تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير - رحمه الله - والذي امتاز بأفضل أنواع التفاسير وهو التفسير بالمأثور حيث أكثر من إيراد الأحاديث المرفوعة وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدى.

وقد تم اختيار أحد المختصرات لهذا المرجع العلمي وهو كتاب (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير) والذي شرفت دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض بإخراج هذا المختصر بإعداد جماعة من العلماء تحت إشراف صفي الرحمن المباركفوري - رحمه الله -

والذي خرج إلى الساحة العلمية سفرا علميا نافعا احتوى جلّ مادة تفسير ابن كثير وتميز ببيان معاني المفردات والعناية بها مع إيضاح أسباب النزول وتقسيم السورة الواحدة إلى موضوعات ووضع عناوين مناسبة لها مع حذف الروايات المتعددة والإسرائيليات، كما امتاز باختصار الأسانيد وحذف الأحاديث المتكررة والضعيفة والواهية.

وقد قررت الـــــجامعة الإسلامية ممثلة بإدارة المناهج تدريس جزء من هذا الكتاب مقررًا لمادة التفسير على طلابها في المرحلة الثانوية في المعاهد والدور التابعة لها، حيث إنه يحقق الأهداف العامة لمادة التفســـــير، والتي من أهمها فهم كتاب الله، والاســـــتمداد منه والاستدلال به لأحكام الإسلام، في العقيدة والفقه والأخلاق، وتعميق الإيمان في النفوس وتوثيق صلتها بهذا النور المبين، وتقوية الجانب اللغوي والبلاغي في لغة طالب العلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

إدارة المناهج

سورة صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي تذكيركم[١] وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي ذي الشأن والمكانة[٣]، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار - جواب هذا القسم هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ

(١) الطبري: ٢١/ ١٤٠

(٢) الطبري: ٢١/ ١٤٠

(٣) الطبري: ٢١/ ١٣٩، ١٤٠

عِقَابِ﴿١٤﴾﴾ وقال قتادة: جوابه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴿٢﴾﴾ [1] واختاره ابن جرير [2] وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴿٢﴾﴾ أي إنّ في هذا القرآن لذكرىٰ لمنْ يتذكر، وعبرة لمنْ يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة - ثم خوّفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل، وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أمة مكذبة ﴿فَنَادَواْ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴿١٢﴾﴾ أي يهرُبون ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴿١٣﴾﴾ روى أبو داود الطيالسي عن التميمي قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نداء، ولا نزْو ولا فِرار. وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصُوا للتوبة حين تولت الدنيا

(١) الطبري: ٢١/ ١٤٠

(٢) الطبري: ٢١/ ١٤١

عنهم[١]، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء - وقال مجاهد: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحينُ حين فِرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

[تعجب المشركين من الرسالة والتوحيد والقرآن]

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيرًا ونذيرًا، كما قال عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ وقال جل

(١) الدر المنثور: ٧/ ١٤٥

وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي بشر مثلهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجَّبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ٱمْشُواْ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد، لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاءَ، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه[1].

[ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمة]

روى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل، ويقول ويقول،

(١) الطبري: ٢١/ ١٥٢

فلو بعثت إليه فنهَيته، فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول. وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يَا عَمِّ إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؛ نعم وأبيك عشرًا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فقاموا فزعين ينفُضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ لفظ أبي كريب[(١)] وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي نحوه. وقال الترمذي: حسن[(٢)]. وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

(١) الطبري: ٢١/ ١٤٩

(٢) أحمد: ١/ ٣٦٢ والنسائي في الكبرى: ٦/ ٤٤٢ وتحفة الأحوذي: ٩/ ٩٩

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ يعني النصرانية، قالوا لو كان هذا القرآن حقًّا لأخبرتنا به النصارى[١] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ قال مجاهد وقتادة: كذب[٢] وقال ابن عباس: تخرص[٣]. وقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم؛ قال الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِبَّ ما قالوا، وما كذبوا به يوم يَدعُّون إلى نار جهنم دعًّا. ثم قال تعالى مبينًا أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزّل الروح من

---

(١) الطبري: ٢١/ ١٥٢

(٢) الطبري: ٢١/ ١٥٥

(٣) الطبري: ٢١/ ١٥٤

أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئًا من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ، وكما أخبر عز وجل عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم: يعني طرق السماء[١]. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: فليصعدوا إلى السماء السابعة[٢].

ثم قال عز وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي هؤلاء الجند المكذِّبون الذين هم في عزة وشقاق: سيهزمون ويغلبون ويُكبتون كما كُبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه الآية كقوله جلت عظمته: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ كان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

[التذكير بمن أهلك من الأقوام السابقين]

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنّكال والنِّقْمات في مخالفة الرسل

(١) الطبري: ٢١/ ١٥٦

(٢) الطبري: ٢١/ ١٥٧

وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذَر المخاطَبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مَثْنويّة[1] أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي فقد اقتربت ودنت وأزِفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطوِّلَها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله عز وجل.

وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب.

---

(١) عبد الرزاق: ٣/ ١٦١

وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب[١]. زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢] وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة، ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا[٣]. وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم[٤]. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بالصبر على أذاهم، ومبشرًا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

(١) الطبري: ٢١/ ١٦٤ والدر المنثور: ٧/ ١٤٨
(٢) الطبري: ٢١/ ١٦٤
(٣) الطبري: ٢١/ ١٦٥
(٤) الطبري: ٢١/ ١٩٥

[ذكر داود]

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيدٍ، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وابن زيد: الأيد: القوة[١]. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة[٢]. وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام[٣]. وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى»[٤] وَأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبِّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ وكذلك

(١) الطبري: ٢١/ ١٦٦، ١٦٧
(٢) الطبري: ٢١/ ١٦٦
(٣) الطبري: ٢١/ ١٦٧
(٤) فتح الباري: ٣/ ٢٠ (١١٣٠) ومسلم: ٢/ ٨١٦ (١١٥٩)

كانت الطير تسبّح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعًا له. روى ابن جرير عن عبد الله ابن الحارث بن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى، فأدخلته على أم هانىء رضي الله عنها فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني به، فقالت: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صب في قصعة، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريبٌ بعضُهن من بعض، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[(١)]. ولهذا قال عز وجل: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي مطيع يسبّح تبعًا له، وقال سعيد بن جبير وقتادة، ومالك عن زيد ابن أسلم وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي مطيع[(٢)].

(١) الطبري: ٢١/ ١٦٩

(٢) الطبري: ٢١/ ١٦٩

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي جعلنا له مُلكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطانًا.

وقوله عز وعلا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفِطنة. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدي: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة[١] وقوله جل جلاله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: ﴿فصل الخطاب﴾ الشهود والأيمان[٢] وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب[٣] الذي فصل به الأنبياء والرسل، أو قال المؤمنون والصالحون، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك[٤]. وقال مجاهد أيضًا: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير[٥].

---

(١) الطبري: ٢١/ ١٧١
(٢) الطبري: ٢١/ ١٧٣
(٣) الطبري: ٢١/ ١٧٣
(٤) الطبري: ٢١/ ١٧٢
(٥) الطبري: ٢١/ ١٧٣

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾

[قصة الخصمين]

قد ذكر المفسرون ها هنا قصةً أكثرُها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثًا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق - وما تضمن فهو حق أيضًا. وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ إنما كان ذلك، لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك

اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما وقوله عز وجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي اختبرناه[١]. وقوله تعالى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي ساجدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

[سجدة صٓ]

سجدة ﴿صٓ﴾ ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: السجدة في ﴿صٓ﴾ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[٢]. ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره. وقال الترمذي: حسن صحيح[٣]. وروى النسائي أيضًا عند تفسير هذه الآية عن ابن

---

(١) الطبري: ٢١/ ١٨١

(٢) أحمد: ١/ ٣٥٩

(٣) فتح الباري: ٢/ ٦٤٣ وأبو داود: ٢/ ١٢٣ وتحفة الأحوذي: ٣/ ١٧٦ والنسائي في الكبرى: ٦/ ٣٤٢

عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ سجد في ﴿صٓ﴾ وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوْبَةً، وَنَسْجُدُهَا شُكْرًا» تفرد بروايته النسائي[١] ورجال إسناده كلهم ثقات.

وروى البخاري عند تفسيرها أيضًا عن العوام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿صٓ﴾ فقال: سألت ابن عباس - رضي الله عنهما - من أين سجَدْتَ؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ[٢].

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿صٓ﴾، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزَّن الناس للسجود، فقال ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ» فنزل وسجد[٣]. وتفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين.

(١) النسائي: ٢/ ١٥٩
(٢) فتح الباري: ٨/ ٤٠٥
(٣) أبو داود: ١٤١٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربةً يقربه الله عز وجل بها وحسنَ مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمٰنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»(١).

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

[الوصية للحكام والسلاطين]

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟

(١) مسلم: ٣/ ١٤٥٨

قال: قل في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا[١]. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب[٢] وهذا القول أمشى على ظاهر الآية. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

[الحكمة في خلق الدنيا]

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثًا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب

(١) الطبري: ٢١/ ١٨٩

(٢) الطبري: ٢١/ ١٨٩

الكافر، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي الذين لا يرون بعثًا ولا معادًا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم، ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يُساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكَمَده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي ذوو العقول، وهي الألباب جمع لب، وهو العقل.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

[ذكر سليمان بن داود]

يقول تعالى مخبرًا أنه وهب لداود سليمان، أي نبيًّا كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه، الخيل الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرَف حافر الرابعة، والجياد السراع[1]. وكذا قال غير واحد من السلف، وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها سِتْر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر، عن بنات لعائشة رضي الله عنها، لُعَبٍ فقال ﷺ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قالت

(١) الطبري: ٢١/ ١٩٢، ١٩٣

رضي الله عنها: بناتي. ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رِقاع، فقال ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت رضي الله عنها: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحةٌ؟ قالت رضي الله عنها: فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه[1]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقطع به أنه لم يتركْها عمْدًا بل نسيانًا، كما شُغِل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله، ما كدتُ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا» فقال: فقمنا إلى بُطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت

---

(١) أبو داود: ٥/ ٢٢٧

الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[١]. ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فُعقرت[٢] وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف[٣].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها[٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعَرْقبة، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها[٥]. وهذا الذي رجح به ابن جرير، فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبًا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل، روى

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٨٢ ومسلم: ١/ ٤٣٨
(٢) الطبري: ٢١/ ١٩٥
(٣) الطبري: ٢١/ ١٩٥
(٤) الطبري: ٢١/ ١٩٦
(٥) الطبري: ٢١/ ١٩٦

الإمام أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال لنا البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال: «إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهُ»(١).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

[ابتلاء سليمان ثم التفضل عليه]

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي اختبرناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ لم يبين الله تعالى حقيقة هذا الجسد الذي ألقاه على كرسيه، فنحن نؤمن أن الله اختبره بإلقاء الجسد على كرسيه ولا نعرف ماهو؟ وكل ما قيل حوله، فهو من الإسرائيليات، لا نعرف صدقه من كذبه. والله أعلم. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي بعد هذا الاختبار أناب إليه تعالى، ودعا وطلب منه المغفرة، وطلب

(١) أحمد: ٥/ ٧٨

حكمًا لا ينبغي لأحد بعده. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ قال بعضهم: لا ينبغي لأحد من بعدي أي إنه سأل من الله تعالى ملكًا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنَنِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنَ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا، وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾» قال روح: فرده خاسِئًا[1]. وكذا رواه مسلم والنسائي[2]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ - ثُمَّ قَالَ: - أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ» ثلاثًا، وبسط يده كأنه

---

(١) فتح الباري: ١/ ٦٦٠

(٢) مسلم: ١/ ٣٨٤ والنسائي في الكبرى: ٦/ ٤٤٣

يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَتَأَخَّرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا، يَلْعَبُ بِهِ صِبْيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ قال الحسن البصري رحمه الله. لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضبًا لله عز وجل، عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر(٢).

وقوله جل وعلا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد من البلاد.

وقوله جل جلاله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريبَ وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار،

---

(١) مسلم: ١/ ٣٨٥

(٢) الطبري: ٢١/ ٢٠١

يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر، والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صَواب، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُيّر بين أن يكون عبدًا رسولًا - وهو الذي يفعل ما يُؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبيًّا مَلِكًا يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جُناح، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال له: تواضَع، فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدرًا عند الله عز وجل، وأعلى منزلة في المَعاد، وإن كانت المنزلة الثانية، وهي النبوة مع الملك، عظيمة أيضًا في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبه تعالى على أنه ذو حظ عند الله

يوم القيامة أيضًا فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

[ذكر أيوب]

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوبَ عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مَغْرِز إبرة سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرَضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وُده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة، وتُطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسَعَة طائلة في الدنيا، فسلب جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبَلَة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال،

واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ قيل: بنُصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل فأنبع الله تعالى عينًا وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عينًا أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ

أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَعَالَى، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنِ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ [فَتَلَقَّتْهُ] تَنْظُرُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَقَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى، فَوَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ» هذا لفظ ابن جرير رحمه الله[(١)].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ

---

(١) الطبري: ٢١/ ٢١١

ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحْثُو فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ» انفرد بإخراجه البخاري[(١)]، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم[(٢)]. وقوله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة. وقوله جلت عظمته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة، والشفقة، والإحسان: أن تُقابَل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثًا وهو الشِّمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينُه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله

(١) البخاري: ٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣

(٢) الطبري: ٢١/ ٢١٢

تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾

[ذكر المصطفين الأخيار من الأنبياء]

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ يقول: أولي القوة والعبادة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يقول: الفقه في الدين[1]. وقال قتادة والسدي: أعطوا قوةً في العبادة وبَصَرًا في الدين.

(١) الطبري: ٢١/ ٢١٥

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم غيرها[١]. وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها[٢]. وقال مالك ابن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذِكْرها. وقال قتادة: كانوا يذكِّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ أي لمن المختارين المجتبَين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستَقْصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر. قال السدي: يعني القرآن العظيم[٤].

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ

(١) الطبري: ٢١/ ٢١٨
(٢) الطبري: ٢١/ ٢١٨
(٣) الطبري: ٢١/ ٢١٧
(٤) الطبري: ٢١/ ٢٢٠

فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

[بيان مآب السعداء]

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب، وهو المرجع والمنقلب، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها، أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها.

وقوله عز وجل: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا، وأُحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي متساويات في السن والعمر، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي[1] ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ أي هذا الذي

(١) الطبري: ٢١/ ٢٢٣

ذكرنا من صفة الجنة، هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم، وسلامتهم من النار. ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ كقوله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع وكقوله عز وجل: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

[بيان مآل الأشقياء]

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل:

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسل الله ﷺ ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده، وهو البارد الذي لا يُستطاع من شدة برده المؤلم.

ولهذا قال عز وجل: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أي وأشياء من هذا القبيل: الشيءُ وضده يُعاقَبون بها. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ ألوان من العذاب[1]، وقال غيره: كالزمهرير، والسَّموم، وشُرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهُوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

[تخاصم أهل النار]

وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذَبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول

(١) الطبري: ٢١/ ٢٣٠

الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي داخل ﴿مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي فبئس المنزل والمستقرُّ والمصير ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسَبه ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالًا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا مالنا لا نراهم معنا في النار. قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: مالي لا أرى بلالًا وعمارًا وصُهيبًا وفلانًا وفلانًا[1]. وهذا ضرب مثلٍ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقَدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا

(١) الطبري: ٢١/ ٢٣٢

كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يُسَلّون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرُنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصُم أهلِ النار بعضِهم في بعض ولعن بعضهم لبعض، لحقٌّ، لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

[رسالة الرسول ﷺ نبأ عظيم]

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله، المشركين به المكذبين لرسوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ﴾ لست كما تزعمون ﴿وَمَا

مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرفٌ فيه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي غافلون.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

[قصة آدم وإبليس]

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وسبحان والكهف، وههنا، وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وامتثالًا لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا. كان من الجن فخانه طبعُه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار، وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أُنسه، وحضْرة قدسه، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أَبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى.

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ

أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد: برفع الحق الأول، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق والحق أقول، وفي رواية عنه: الحق مني وأقول الحق[1]. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به[2] (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح، أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي

---

(١) الطبري: ٢١/ ٢٤٢

(٢) الطبري: ٢١/ ٢٤٢

زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم، الله أعلم[(١)]. فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أخرجاه[(٢)] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: القرآن ذكرٌ لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة.

آخر تفسير سورة صٓ، ولله الحمد والمنّة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) القرطبي: ١٥/ ٢٣٠

(٢) فتح الباري: ٨/ ٤٠٩ ومسلم: ٢/ ٢١٥٥